الفصل السابع

النموذج السابع
التربية من أجل الدفاع عن العقيدة
من التراث الأوروبى فى القرن الحادى عشر
الميلادى الحركة المدرسية

الفصل السابع
النموذج السابع
التربية من أجل الدفاع عن العقيدة
من التراث الأوروبى فى القرن الحادى عشر الميلادى
الحركة المدرسية

مقدمة :

الحركة المدرسية مصطلح أطلق على التربية التى سادت أوروبا من مستهل القرن الحادى عشر إلى نهاية القرن الخامس عشر ونتج عنها ظهور الجامعات ويرجع الفضل فى ظهور هذه الحركة إلى طبقة التجار والحرفيين ونمو المدن وانكسار سيطرة الاقطاع والتقاء أوروبا بالفكر الاسلامى عن طريق معابر الحضارة فى الاندلس وصقلية وشرق الأبيض المتوسط والتى عن طريقها عرف الغرب ترجمات لأعمال الفلاسفة الأغريق.

ساد فى أوروبا قبل القرن الحادى عشر حياة عقلية تمثلت فى الخضوع الأعمى لسلطان الكنيسة وقبول أوامرها واتجاهاتها دون أدنى اعتراض أو نقد وكانت تظهر أيضاً فى التسليم الكامل بصحة الحقائق على أساس تقليدى. فقد أعلن رجال الدين Synods أن الشمس تدور حول الأرض كما حددوا الطريقة التى يرسم بها الفنان لحية القديس وملابسه كما قررت الكنيسة بالدقة نفسها معتقدات الناس وكان الشك أو الاعتراض على صحة هذه الحقائق يعد خروجا على الدين .

غير أنه منذ القرن الحادى عشر بدأت الأفكار الوثنية فى الزحف من الشرق وكان لابد من مناقشتها والوقوف فى طريقها واقترح بعض المفكرين حينذاك ضرورة صياغة المعتقدات الدينية فى أساليب جديدة .

لذا هدفت الحركة المدرسية أساساً إلى الاستعانة بالعقل فى الدفاع عن العقيدة وتقوية الحياة الدينية عن طريق تقوية المواهب العقلية والقضاء على الشك والتساؤل والالحاد والهرطقة عن طريق المناقشة، لذا يمكن القول بأن هذه المرحلة كانت فترة نزاع بين العقل والسلطة والكنسية. ويكفى دليلاً على تسلط البابوية ما أصدره البابا جريجورى السابع عام ١٠٩٠م واسماه الارادة البابوية وهى مجموعة آراء ونظريات هدفها أظهار سمو البابوية وعظم مكانتها وسلطانها وتسلمها على السلطة الطمانية. ومن أهم ما جاء بها: أن البابا وحده هو الذى أسس الكنيسة الرومانية. وأن سلطة البابا وحدها هى التى تسمى بحق سلطة عالية. وللبابا وحده الحق فى استعمال الشعار الامبراطورى. وأن جميع الامراء والحكام الطمانيين عليهم أن يقبلوا قدم البابا. وأن للبابا السلطة فى تعيين وعزل الاباطرة. وأن لا يذكر فى الكنائس إلا اسم البابا وحده وأن القرارات التى يصدرها البابا لا يمكن لأى فرد الغاؤها فى حين يستطيع البابا الغاء القرارات التى يصدرها أى فرد آخر. ولا يستطيع أى إنسان أن يحاكم البابا. وأن للبابا الأذن لرعاياه بتوجيه الاتهامات لحكوماتهم وحكامهم وله السلطة فى أن يجعل رعايا الحكام الفاسدين يتحللون من ولائهم لأولئك الحكام. كما لا يمكن اعتبار الفرد كاثوليكيا أن لم يتفق فى آرائه ومبادئه مع الكنيسة الرومانية وأن الكنيسة الرومانية لم تخطئ مطلقاً وذلك وفقاً لما أتت به الاسفار القديمة.

وبرغم هذه السلطة الممنوحة للكنيسة وعلى رأسها البابا فإن الحركة المدرسية عملت على تقوية القدرة على صوغ المعتقدات فى أساليب منطقية والدفاع عنها بأدلة منطقية مع تجنب اثارة روح البحث والتساؤل بما يتنافى وما سبق أن أقرته الكنيسة من آراء ومعتقدات .

كما هدفت الحركة المدرسية إلى تنظيم المعرفة وصبغها بالصبغة العلمية مع تمكين الفرد من الألمام التام بالمعارف المنظمة المصطبغة بالصبغة اللاهوتية والفلسفية أو الميتافيزيقية .

ولما كانت الأسس المنطقية التى قام عليها تنظيم المعارف مستمدة من مؤلفات آرسطو فى المنطق فإن المنهج الدراسى عرف بأنه امتزاج المعتقدات المسيحية بمنطق آرسطو. وبدأ تكون المنهج من المبادئ، الكنيسة المتعلقة بالقضاء والقدر. وحرية الارادة وعشاء الرب والتثليث والبراءة . وأخذ هذا المنهج يصوغ هذه العقائد فى أسلوب فلسفى وعرضها فى أسلوب يؤلف بينها جميعاً. وكان نظام التربية المدرسية يقضى بأن يتمكن الطالب من علم المنطق أو الحوار باعتباره مقدمة ضرورية لممارسة الدراسة على أسس علمية ويمكن القول أن المواد الدراسية كانت تدور حول أمور معنوية بحتة مجردة من المسائل المادية .

ومن أشهر رواد الحركة المدرسية ابيلارد وتوماس اكونياس. أما ابيلارد (١٠٧٩ - ١١٤٢م) فقد ألف كتاباً (نعم ولا) وفيه تمثل حرية الفكر حيث طرح فيه نظريته فى شكل أسئلة بدلاً من سردها على شكل قضايا. وبذلك أثار روح البحث والتفكير المستقل وكان كتابه هذا عبارة عن مجموعة من فقرات الكتاب المقدس ومن مؤلفات أباء الكنيسة فى المسائل اللاهوتية. حتى بين تناقض الآراء واختلاف وجهات النظر الدينية والسلطة

الكنسية. ولم ينته إلى رأى حاسم فى هذه الآراء، وأثار بذلك روح التساؤل وأكد أهمية البحث فى المتناقضات. وقد ترك أثراً بكتابه هذا يتلخص فى أن الإيمان بإجماع الاباء والاعتماد على آرائهم أصبح موضع تساؤل وشك . وكان تأثيره محطماً لطاعة الكنيسة فقد كان يرى أن التعقل مقدم على الاعتقاد وأنه من الممكن أن يمدنا العقل بكثير من العقائد المسيحية .

كما وضع توماس اكونياس (١٢٢٥ - ١٢٧٤م) كتابه المسمى سوماثيولوجيا Summa Theo Logia وينقسم إلى أربعة أجزاء تضم عدداً من المشكلات التى تتضمن كل منها حقيقة من الحقائق المذهبية الكبرى مثل عقيدة التثليث وكل مشكلة تبحث فى مقالات يتضمن كل منها حقيقة فرعية تندرج تحت الحقيقة الرئيسية .

لقد عاب المؤرخون على الحركة المدرسية أنها لم تستند إلى أمور حقيقية واقعية . فلم تدر حول العالم المادى الذى يألفه الناس فى حياتهم اليومية فحسب. بل أنها لم تكن تستند إلى أساس فكرى صحيح أيضاً فكثيراً منها كانت مناقشات لا تنتهى ولا عناء فيها تدور حول الألفاظ، لكن ذلك لا يمنع من الاعتراف بفضل تلك الحركة فى أنها أطلقت النشاط الفكرى ويمكن تلمس ذلك فى نمو الجامعات .

وعند تناولنا كيفية نشأة الجامعات الأوربية فى العصور الوسطى ينبغى القول أن هذه العصور سادها نظام استبدادى ولم يكن الفرد فيه يأمن على حقوقه إلا إذا كان فى حماية هيئة قوية، فمن الناحية السياسية كان يتحتم على كل فرد أن يرتبط بأمير اقطاعى يستمد منه الحماية. وأما الناحية الاقتصادية فكان الإنسان يؤمن هذا الجانب إذا عمل بالتجارة أو انضم إلى احدى الشركات. وأما الناحية الثقافية فكان أمرها موكلاً للكنيسة. وفى ظل

هذه الظروف كانت جماعات الطلبة تجتمع فى مراكز معينة طلباً للعلم. وكانت هذه المراكز فى الماضى مدارس ملحقة بالأديرة أو الكاتدرائيات. وأول هذه المدارس كان فى باريس وساعد على تحول هذه المدارس إلى جامعات عدة عوامل لعل أهمها :

- بدأ رجال الكنيسة منذ القرن الحادى عشر يزيحون عن أنفسهم القيود والأغلال التى تحول نحو حياة عقلية حرة .
- تمتع بعض الدول مثل فرنسا وإنجلترا وإيطاليا والمانيا بالهدوء النسبى مما جعل قيام حضارة ثابتة الدعائم من الأمور الممكنة .
- التقدم الاقتصادى نتيجة النشاط التجارى. وقيام حكومات المدن وخاصة مدن ايطاليا مما أدى إلى ارتفاع شأن التعليم المدنى.
- القضاء على العزلة التى عاشتها أوروبا نتيجة اتصالها بالشرق من طريق الحروب الطيبية .
- زيادة النمو والتقدم فى العلوم الكنيسة وفى اللاهوت والجدل والطب والقانون الرومانى أدى إلى نشأة الجامعات وتميزها بالإدارة الديمقراطية مع تمركزها فى الأماكن المعمورة بعكس المدارس الديرية التى كانت تقام فى مناطق منعزلة فى الوقت الذى تمتعت فيه بامتيازات مثل اعفاء الطلاب من الخدمة العسكرية والإدارية واعفائهم من دفع مختلف الضرائب والاعلانات مع تمتع هذه الجامعات بسلطة محاكمة أعضائها ومن ينتمون إليها. وكذلك تمتعها بحق الاضراب عن القاء المحاضرات أو انتقال الجامعة اساتذة وطلابا من بلد لآخر إذا حدث اعتداء على حقوقها وامتيازاتها. وقد نتج عن استخدام هذا الحق أن انتقلت جامعة باريس إلى اكسفورد عام ١٢٢٩م. كما انتقلت جامعة اكسفورد إلى

كمبردج عام ١٢٠٩م أثر اضطراب حدث بها. كما كان من حق الخريجين القيام بالتدريس بأى مكان دون الرجوع لسلطة البابا أو الكنيسة بجانب حق طلب الخبز والنبيذ من التجار فى بعض أيام الأعياد .

ويشير الدكتور سعيد عاشور إلى تنظيم الجامعات فى ذلك الوقت فيما يسمى براءة بابوية بشأن إنشاء جامعة أفينون عام ١٣٠٣م وترجع أهمية هذه البراءة إلى ما تحويه من معلومات عن نظم الامتحانات فى الجامعة. وفى هذه الدائرة التى أصدرها البابا بونيفس الثامن يقول :

"أن الصالح العام يتطلب جذب رجال العلم إلى هذه المدنية حتى تثمر جهودهم فى المستقبل حيث يتمتع طلاب العلم بحرية تامة فى اختيار الكليات والمحاضرات التى يرغبون فيها. وعندما يأنس الطالب فى نفسه الكفاءة على القيام بمهنة التدريس عليه أن يؤدى امتحاناً فى القانون الدينى والقانون المدنى. والطب والفنون الحرة. ومن يجتاز الامتحان بنجاح يمنح لقب الاستاذية فى مادة تخصصه وكل من يتأهل للحصول على الدرجة عليه أن يتقدم لأسقف أفينون كى يقوم بدعوة اساتذة الكلية المختصة لكى يمتحنوه مرة ثانية للتأكد من مقدرته العلمية حتى إذا أجازوه يسألهم الأسقف عن مستواه العلمى، وعما إذا كان يستحق الحصول على الدرجة المطلوبة. وعندئذ يدلى الاساتذة برأيهم ويظل هذا الرأى سريا لا يجوز للأسقف أن يبوح به حتى لا يعرف الطالب من أجازه ومن امتنع من الاساتذة عن اجازته. وأخيراً يقوم الأسقف بالترخيص بالتدريس لمن يراه الاساتذة عن اجازته. وأخيراً يقوم الاسقف بالترخيص بالتدريس لمن يراه صالحاً. ويحجب ترخيصه عن غير الصالحين دون أن يخشى لومة لائم. وكل من يجتاز الامتحان وتسلم اجازة التدريس ويتمتع بكامل حقوقه فى التدريس فى أىمكان فى فرع تخصصه

دون أن يطالب بتأدية امتحان أخر فى الجهة التى يرغب التدريس فيها . وحتى تتم الامتحانات على الوجه الاكمل فان أعضاء هيئة الامتحان يقسمون قسما عاما وذلك قبل مباشرتهم أعمالهم يتعهدون فيه بالحضور إذا دعوا الى ذلك . وأن يصدروا على الطلبة المتقدمين للامتحان فى صراحة وأمانه تامة. وكل من يرفض من الاساتذة أداء ذلك القسم لا يسمح له بالتدريس بالجامعة أو امتحانتها أو المشاركة فى مزايا الجامعة وحتى يتمكن الاساتذة والطلاب من الانصراف فى هدوء، وطمأنينة لاداء، واجباتهم والتقدم بمستوى الدراسات التى يتخصصون فيها فان البابا يقرر منحهم جميع الحقوق والحرمات والامتيازت التى تكفل لهم أداء واجبهم على الوجه الأكمل.

كانت الفوراق القومية جنسية أكثر منها سياسية لأن أوروبا لم تكن انذاك قد عرفت الحدود السياسية المحددة الواضحة، لذا فقد قسم الطلاب إلى مجموعات على أساس التقارب اللغوى والجنس بين كل مجموعة ومثل هذه المجموعات أطلق عليه اسم Universities Majistroum et sholareum وكلمة Universities معناها جميعاً. وفيما بعد القرن الرابع عشر استعملت للدلالة على معناها الخاص بدلاً من معناها السابق، ومصطلح Faculty كان معناها العام " المعرفة أو العلم " وبمرور الزمن صار معناها قسم دارس فيقال مثلاً Faculty Of Law بمعنى كلية الحقوق .... الخ. وأخيراً صار معناها الهيئة المشرفة على نوع معين من الدراسة، وأصبح لها فيما بعد حق منح الدرجات كما صار لكل منها عميد على مجموع الكليات أن تختار لها رئيساً وكان ينتخب سنوياً. وكان فى العادة طالباً خاصة فى جامعات الجنوب ولكن حدث فى القرن السادس عشر

أن أصبح هؤلاء الرؤساء موظفين سياسيين كذلك كان على هذه الكليات أن تنتخب سنوياً مستشار أو وكيل .

وكان على الحاصل على شهادة البكالوريا ويرغب في الدراسات الجامعية أن يلازم استاذاً يكون مسئولاً عنه لمدة قد تستمر من ٣-٧ سنوات يكون خلالها قد تعلم البيان والنحو والمنطق. وتمكن من تعريف الكلمات وتحديد معانى العبارات واستخدام المصطلحات، فإذا نجح فى ذلك وحاز رضا مجموعة من الاساتذة غير استاذه عليه مواصلة دراسته تحت إشراف أحد الاساتذة دون التقيد بأستاذ معين، كما كان الحال من قبل. وفى الوقت نفسه يقوم بتثقيف عدد من التلاميذ تحت إشراف أحد الاساتذة. وبعد فترة يقوم بإعداد رسالة يدافع عنها أمام فريق اساتذة نابغين فى مادة تخصصه فى حفل عام. وبعدها يمنح الدرجة مهما يكن اسمها سواء أكانت اليسانس أو الاستاذية أو الدكتوراه. إذ يلاحظ أنها جميعاً فى بداية عصر الجامعة كانت تحمل معنى واحداً .

كانت الجامعات حصناً للعبقريات ومنارات للفكر، وكان لها دور كبير فى حل مشكلات الدولة فقد كان يحتكم إليها فى حل النزاع القائم بين الحكومة والكنيسة، كما كانت تعمل على حل المشكلات المذهبية . ويكفى أنه كان من آثارها ظهور اشهر العلماء من أمثال بترارك وارازمس الذين حملوا راية أحياء النهضة فى أوروبا من بعد وعلى يديهم ظهر ما يسمى بالحركة الانسانية .